نصوص تراثية عن حِبْر الحبّار

تحقيق ودراسة

لطف الله قاري

ينبع الصناعية – المملكة العربية السعودية

الحَبّار[١] نوع من حيوانات بحرية تتبع طائفة رأسيات الأرجل cephalopods من شعبة الرخويات Mollusca. وللحبابير صدفة كلسية داخلية تسمى زبد البحر[٢] أو رغوة البحر[٣] أو لسان البحر[٤]. وهي استعملت دواءً في القديم والحديث، معروفة في محلات العطارة. ويتميّز الحبّار بإفراز الحبر، وهذا هو سبب تسميته.

وفي كتب التراث تعددت أسماء الحبّار؛ فهو عند ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) يسمى السيبيا، والزبيدي (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م) في «تاج العروس» ينقل عن «المحيط»[٥] للصاحب ابن عبّاد (ت ٣٨٥هـ ٩٩٥م) قوله: «الخَذّاقُ، كشَدّاد: سَمَكَةٌ لها ذَوائِبُ كالخُيُوطِ إذا صِيدَتْ خَذَقَتْ في الماء، أَي: ذَرَقَتْ»[٦].

هل استعمل السلف حِبْر الحبّار للكتابة؟ المؤلفات الكثيرة حول صناعة مواد الكتابة[٧] – والتي تحتوي على مئات الوصفات لصنع الأحبار– لا تذكر استعماله لهذا الغرض. ولهذا قال المستشرق المختص بعلم المخطوطات (كوديكولوجيا Codicology) ديروش: «وفي حدود معرفتنا، فإن النصوص لا تتحدث إطلاقًا عن الحبّار Sépia، فاستخدام هذه المادة في الحقيقة أمر مشكوك فيه»[٨].

وفي الحاشية يذكر ديروش ملاحظتين: أولاهما: أن خبير البرديات الألماني گروهمان

Grohmann «يفترض أن الحبّار كان يُستعمل لكتابة نص البروتوكولات». وطبعًا يفترض ديروش أن كلام گروهمان غير صحيح. والواقع غير ذلك. فقد ذكر عدد من المراجع أن حِبر الحبّار كان يُكتب به على البرديات في عهد الرومان[٩].

والملاحظة الأخرى هي: أن المستشرق سورديل Sourdel نشر رسالة بعنوان: «كتاب الكُتّاب وصفة الدواة والقلم وتصريفها» لأبي القاسم عبد الله بن عبد العزيز البغدادي الكاتب النحوي الضرير. وفي تعليقاته على النصّ المحقق ذكر سورديل أن المداد هو sépia، أي حِبر الحبّار. وأحال في تعليقه على كتاب «أدب الكتّاب» للصولي. لكن عندما نراجع كتاب الصولي لا نجد علاقة تربط الحبّار بالمداد[١٠]. ولهذا فإن ملاحظة ديروش صحيحة هنا.

هل فعلاً صَمْتُ المؤلفات التراثية حول صناعة مواد الكتابة وكونها «لا تتحدث إطلاقًا عن الحبّار» يعني أن السلف لم يستعملوا حِبْر الحبّار على الإطلاق للكتابة؟ الجواب بالنفي، بدليلين أولهما: أن الرومان من قبل الإسلام كتبوا بهذا الحبر على البرديات كما ذكرنا. وتأثير التلاقح الحضاري بين مصر والشام التي كان يحكمها أولئك وبين حضارة الإسلام التي حلّت محلهم ليس عليه أي خلاف.

والدليل الآخر هو: أن التراث العلمي يمدنا بنصوص صريحة عن استعمال هذه المادة للكتابة. فنستعرض هنا ثلاثة نصوص تراثية حول الموضوع. فأوّلها ما ذكره ابن البيطار نقلًا عن الغافقي (ت حوالي ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م) في حديثه عن «سيبيا»: «اللعاب الأسود الذي يخرج من هذا الحيوان يُنبِت الشعر في داء الثعلب. وقد يُكْتَب به كالحبر ولذلك يسميه قوم الحبّار»[١١].

والنص الثاني في تذكرة داود الأنطاكي (ت ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م). يقول المؤلف في مادة سيسيا (تحريف سيبيا): «سمكة كثيرة الوجود ببحر قلزم... ولها حوصلة سوداء، داخلها رطوبة سوداء، كأجود ما يكون من الحِبر كما شاهدناه»[١٢].

والنص الثالث نجده في كتاب: «قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار»، تأليف أحمد ابن عوض المغربي، من أهل القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) تقديرًا، حيث نقرأ: «فصل في عمل الأحبار. صفة حبر بقَطْر الحبّار المشهور»[١٣]. لكن الوصفة التي تلي هذا العنوان لا نجد فيها استعمال قَطْر الحبّار. فهنا سقط أو نقص في النص. وأسباب هذا النقص في نصوص المخطوطات عديدة كما يعرف المشتغلون بالتحقيق[١٤].

الخلاصة:

كتب التراث العلمي - أي الكتب المؤلفة في العلوم الطبيعية وما يتصل بها كالطب والصناعات والبحرية - رافد أساسي يكمل معلوماتنا حول مواد الكتابة. وقد سبق لكاتب هذه الأسطر أن كتب بحثًا حول ما ورد في كتب الصناعات الشاملة في مجال صنع الحبر والمداد[١٥]. واعتماد المختصين في مجال صناعة المخطوط أو الكوديكولوجيا فقط على المؤلفات التراثية في مجالهم يبقى مجرد اجتهاد ينتظر الكلمة الأخيرة بعد الاطلاع على كتب التراث الأخرى. فهذا ما رأيناه في حالتنا هذه، حيث ذِكر استعمال حِبر الحبّار لم نجده إلا في كتب التراث العلمي.

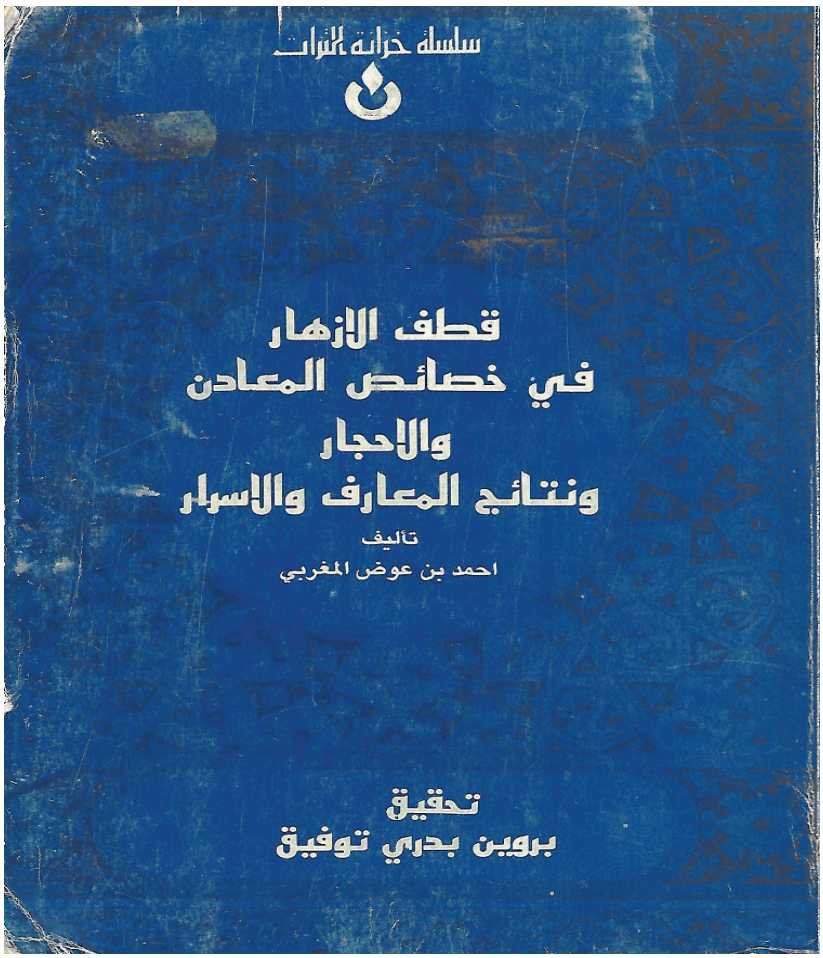

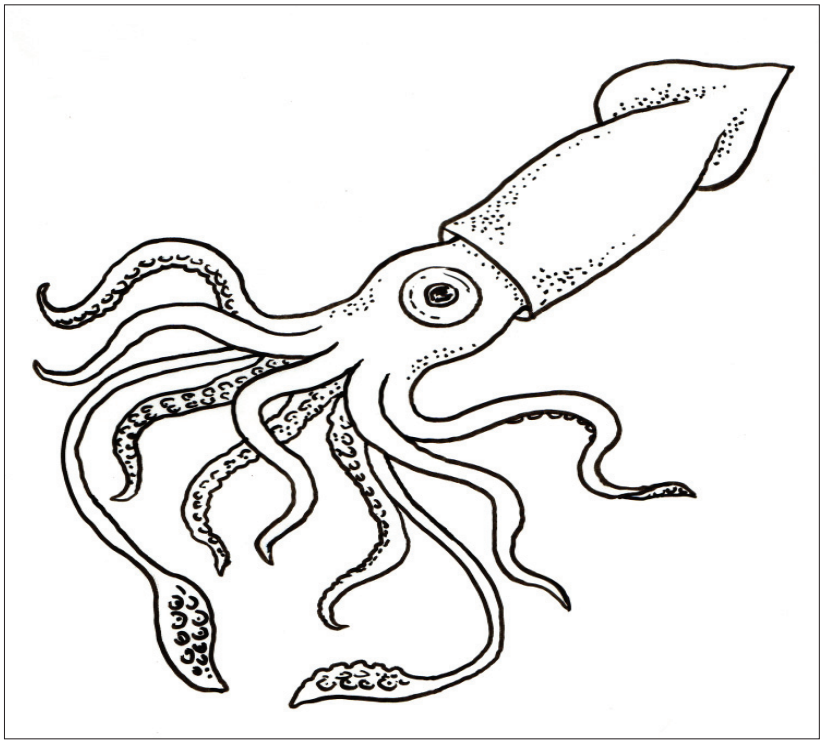

الهوامش

(١) بالإنكليزية: squid، باليونانية واللغات المتفرعة من اللاتينية calamari. وقد عُرِف بأسماء محلية كثيرة. فهو في عُمان يسمى الضغط، وفي مصر السُبيط والحبّار والكاليماري، في بعض دول الخليج العربي باسم الخنّاق والنفر، وفي بلاد الشام سبيدج، وفي دول المغرب العربي السيبيا أو الكلامار. بالإنكليزية اسمه الصحيح squid. وقد يُسمّى cuttlefish، لكن المراجع تفيد بأنهما حيوانان مختلفان ينتميان إلى مجموعة رأسيات الأرجل cephalopods التي تضم أيضًا حيوان الأخطبوط. كلمة sépia بالفرنسية تطلق على cuttlefish. لكن -كما تستعمل الكلمتان cuttlefish و squid بمعنى واحد عند العامة في الإنكليزية- نجد كلمتي sépia وcalamar تستعملان بمعنى واحد عند الفرنسيين.

(٢) المعلوف، أمين: **معجم الحيوان** ٠ – القاهرة: نشر مجلة المقتطف (هدية المقتطف السنوية)، ١٩٣٢م. ثم طبعة مصورة ببيروت دون ترخيص، بعد شطب اسم الناشر الأصلي، مادة «زبد البحر» و«لسان البحر».

(٣) دوزي، رينهارت . **تكملة المعاجم العربية**، تعريب

محمد سليم النعيمي وجمال الخياط ٠- بغداد: وزارة الثقافة والإعلام العراقية، ١١ جزءًا، ١٩٧٨-٢٠٠٢م. مادة رغو.

(٤) ابن البيطار . **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية** ٠- القاهرة: المطبعة الأميرية ببولاق، ١٢٩١هـ/ ١٨٧٥م، وأعيدت هذه الطبعة بالتصوير مرارا، مواد «سرطان بحري» و«سيبيا» و«لسان البحر».

(٥) الصاحب ابن عبّاد، إسماعيل. **المحيط**؛ تحقيق محمد حسن آل ياسين ٠- بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٧٥م، ج٤، ص١٩٢.

(٦) الزبيدي . **تاج العروس من جواهر القاموس**، عدة محققين ٠- الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٤٠ مجلدًا، ١٩٦٤/٢٠٠٢م، مادة خذق، ج٢٥، ص ٢١٦. ومن هذه الكلمة نجد استعمال تسمية «الخثاق» في بعض دول الخليج.

(٧) نشر كاتب هذه الأسطر قائمة تحتوي على رسائل مطبوعة ومخطوطة في مجال صناعة مواد الكتابة من أحبار وأصباغ وورق، وذلك في بحثه «الكتب التراثية في الصناعات الكيميائية»، أبحاث الندوة العالمية التاسعة لتاريخ العلوم عند العرب، (التي عقدت في دمشق، في شهر تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٨م) ٠- حلب: معهد التراث العلمي العربي، ٢٠٠٩م، ص ٥٤٧-٦٠٥. وقد عيد نشر البحث في كتاب: **نصوص نادرة من التراث العلمي** ٠- القاهرة: مكتبة الإمام البخاري، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

(٨) ديروش، فرانسوا . **المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي**؛ تعريب أيمن فؤاد سيد ٠- لندن: مؤسسة الفرقان، ٢٠٠٥م، ص ١٨٧.

(٩) من المراجع التي ذكرت استعمال حبر الحبّار على البرديات في عهد الرومان ومن قبلهم:

1- Bello, Carmen & Àngels Borrell: "The Papal bulls on papyrus : an approach to their conservation", Imago temporis. Medium Aevum, vol. 7 (2013), pp. 377-400. See pp. 378 & 391.

2- Middleton, J. Henry: Illuminated Manuscripts in Classical and Mediaeval Times, Their Art and Their Technique, Cambridge (UK): Cambridge University Press, 1892, p. 28.

3- Wiborg, Frank B. Printing Ink, A History, New York & London: Harper & Brothers, Publishers, 1926, p. 74.

(١٠) الصولي، محمد بن يحيى . **أدب الكتّاب**؛ تحقيق محمد بهجة الأثري ومحمود شكري الألوسي ٠- بغداد: المكتبة العربية، ١٣٤١هـ /١٩٢٣م، ص ١١٠-١١٣.

(١١) ابن البيطار، المصدر السابق، مادة سيبيا. الكلمة الأخيرة في نص ابن البيطار في طبعة بولاق هي «الحبر» بدلًا من الحبّار. وهذا سهو من النساخ

على الأرجح؛ لأن كلمة الحبّار وردت صراحة في نص المغربي المذكور في البحث.

ولا نجد هذه المادة (سيبيا) في ما وصل إلينا من كتاب الغافقي. انظر: ابن العبري، أبو الفرج غريغريوس الملطي . **منتخب جامع المفردات** لأحمد بن محمد الغافقي؛ تحقيق (وترجمة إلى **الإنكليزية**) ماكس مايرهوف وجورجي صبحي ٠- القاهرة: كلية الطب بالجامعة المصرية، ١٩٣٧م.

(١٢) الأنطاكي، داود بن عمر: **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب** ٠- القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٢م، مادة سيسيا (تحريف سيبيا)، ج١ ص٢٠٦.

(١٣) المغربي، أحمد بن عوض: **قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار**؛ تحقيق بروين بدري توفيق، بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٩٠م، ص ٢٧٤. الكتاب محقق حسب مخطوطة عراقية واحدة، بينما هناك مخطوطتان - إحداهما في گوتا Gotha والأخرى في ليپزگ Leipzig- متاحة لمن أراد إعادة تحقيق الكتاب. والكتاب بحاجة إلى إعادة تحقيق.

(١٤) منها أن المؤلف ترك فراغًا على أن يملأه فيما بعد. وجاء الناسخ فنسخ النص دون ترك فراغ. ومنها ضياع ورقة من المخطوطة، نُـزِعت أو سقطت أثناء التجليد. وقد راجع كاتب هذه الأسطر نسخ مخطوطتي **گوتا وليپزگ**. فنجد أن مخطوطة **گوتا** فيها نفس السقط. أما مخطوطة **ليپزگ** فلا تحتوي على هذا القسم من الكتاب أصلًا.

(١٥) قاري، لطف الله . «الحبر والمداد في كتب الصناعات الشاملة»، «**مجلة معهد المخطوطات العربية**»، المجلد ٥٥، الجزء الأول، جمادى الأولى ١٤٣٢هـ مايو ٢٠١١م، ص ٧٩-١٠٨. وأعيد نشر البحث في كتاب «**علم المخطوط العربي**، بحوث ودراسات»، الكويت: قطاع الشئون الثقافية بوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية٠- والقاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠١٤م، ص ٢١٧-٢٥٠.